ماذا ننتظر لتغيير مفهوم المجتمع ؟

عزيزى شريف :

لعلك تعرف أننى بحكم عملى قد أتيحت لى فرصة زيارة عدد كبير من دول العالم ، وذات صيف كانت مدينة أنسبروك فى غرب النمسا من بين المدن التى زرتها لأسباب صحية ، وأنسبروك من مدن النمسا الشهيرة بسبب موقعها فى منطقة الجبال والتلال الخضراء الشهيرة فى النمسا باسم منطقة التيرول ، وزوار هذه المدينة شتاء أكثر كثيرًا من زوارها فى فصل الصيف ؛ بسبب رياضة التزحلق على الجليد التى تجتذب الكثيرين من عشاق هذه الرياضة ، وبسبب اعتدال جوها فى هذه الفترة ؛ فهى تجمع بين الشمس والجليد فى وقت واحد ..

ليست هذه هى القضية على كل حال ، ولا هى موضوع رسالتى إليك ، وإنما أردت أن أنقلك معى للحظات إلى جو هذه المدينة التى يحتكر بيع الصحف فيها الشباب المصريون .

وفى أوروبا فإن القاعدة أن يذهب المواطن إلى الصحيفة ولا تذهب الصحيفة إليه إلا فى البريد .. أما الباعة المألوف شكلهم فى شوارع مصر والذين ينادون على الصحف والمجلات التى يحملونها فهذا أمر غير مألوف فى أوروبا وأمريكا .. فالصحف تباع فى أكشاك خاصة بذلك ، وفى أمريكا توجد أجهزة خاصة

موجودة على نواصى الشوارع يقصدها مشترى الصحيفة ، ويضع فى ثقب خاص ثمن الصحيفة ثم يفتح بابًا زجاجيًّا ويلتقط صحيفته ..

ولكن فى أنسبروك وفى فيينا ، بل أكاد أقول لك فى كل مدن النمسا ، يسرح الشباب المصرى بالصحف وينادى عليها ، ويقتحم المطاعم وواجهات دور السينما والمسارح والأوبرا ، ويقفون على نواصى الشوارع عند إشارات المرور وفى الميادين ، لالتقاط الزبائن فى سياراتهم فى عز البرد والثلج وتحت الأمطار !

وهذا الشباب المصرى منهم الكثيرون من خريجى الجامعات ، وهناك مصريون آخرون فى النمسا يعملون فى المطاعم فى غسل الصحون والأطباق ، أو سائقين لسيارات تاكسى أو جرسونات أو باعة ..

وفى أقصى شمال أسكوتلندا قبل خمسة أعوام ، فوجئت بأن الجرسون الذى يخدم فى هذا المطعم البعيد مصرى ..

ومن حوارى معه عرفت أنه خريج كلية التجارة ، وأن الصدفة وحدها هى التى جاءت به إلى هذا المكان ، وأنه تدرج من صبى مرمطون يخدم فى المطبخ إلى جرسون أول !

هل لى أن أسألك عزيزى شريف : لماذا ؟

لماذا يقبل الشباب المصرى خريجو الجامعة حملة الليسانس والبكالوريوس .. العمل فى هذه الأعمال فى الخارج ولا يمارسونها فى داخل بلادهم مصر ؟

أعرف مقدمًا إجابتك ، فسوف تقول لى إنهم هناك فى الغرب يحترمون كل أنواع العمل ، فلا يعيب الإنسان أن يعمل جرسونًا أو جزارًا أو ماسحًا للأحذية ، وإنما يعيبه أن يكون عاطلاً ..

أعرف أنك سوف تقول لى إن طبيعة المجتمع المصرى حتى اليوم مازالت تضع للمكتب والكرسى والحجرة التى يجلس فيها الموظف ، والساعى الواقف

على الباب ، والأجراس التى يدق عليها ، وغير هذا من مظاهر الوظيفة الأخرى لكل هذا قيمته ، وأنه بالنسبة للمجتمع المصرى ، فإنه يعتبر مثل هذه الأعمال إذا قام بها الشاب خريج الجامعات عيبًا ، وأن نصيب هذا الشاب هو الاحتقار أو التأفف !

أليس هذا ما سوف تقوله ؟

وعلى فرض أن هذا صحيح ، وأن مجتمعنا مازال «يستعرُّ» من خريج الجامعة إذا عمل سائقا للتاكسى أو جرسونا فى مطعم أو ميكانيكيا أو نقاشا أو سباكا أو مكوجيا أو عاملا فى محطة بنزين ..

حتى على فرض أن هذا صحيح فمن الذى يستطيع تغيير ذلك ؟

من الذى يمكنه تغيير مفاهيم المجتمع المصرى تجاه أنواع العمل المختلفة ، ويجعله ينظر إلى أى عامل بنفس النظرة التى ينظر بها مجتمع الغرب إلى كل عامل ؟

ألست أنت يا شريف وكل زملائك الشبان ؟

إن الشباب فى كثير من المفاهيم يعنى الثورة ، وإذا كان مجتمعنا يحتاج إلى ثورة فى تغيير مفاهيمه تجاه العمل ، فصدقنى يا شريف أنه لن يقوم بهذه الثورة غيركم أنتم الشباب ..

ولا تتصور ، كما قد يحلو للبعض للتهرب من مسئولياته ، أن ذلك سوف يكون صعبًا ، ففى حياتنا عادات وتقاليد تربى عليها أجدادنا ، ولم يتصور أحد أنها سوف تختفى ، ولكنها اختفت وأصبحت نكتة نضحك عليها اليوم عندما نذكرها .

من كان يتصور أن شابا يمكنه أن يخرج إلى الشارع بدون طربوش ، كما كنا نفعل إلى ما قبل ٤٠ سنة ، عندما كان خروج أى رجل بدون طربوش أشبه بخروجه عاريًا ؟

من كان يتصور أن موظف الدولة سوف يذهب إلى عمله فى الصيف بالقميص والبنطلون ، وأن وزير هذه الأيام سوف يلبس «التيشرت» وهو الذى كان حتى عشرين سنة لا تظهر له صورة بغير البدلة الكاملة وربطة العنق ؟

من كان يتصور أن البيت المصرى الذى كان يقوم بخبز خبزه فى داخل البيت يشترى هذا الخبز من الشارع ؟

من كان يتصور أننى عندما أحتفى بأى ضيف أدعوه للغداء أو العشاء فى مطعم بدلاً من بيتى ؟

وغير ذلك لديك مثال آخر ، جرسونات المطاعم فى الفنادق الكبرى ، فحتى افتتاح فندق هيلتون فى نهاية الخمسينات لم تكن هناك فتاة مصرية واحدة جرؤت على العمل فى مطعم ، وعندما افتتح فندق هيلتون كانت كافتيريا الفندق أول كافتيريا فى مصر تعمل فيها الفتاة ، وكان كثيرون من المصريين يقصدون هذه الكافتيريا للفرجة على البنت المصرية الجرسونة !

هل تعجب اليوم لمئات الفتيات فى كل مطاعم الفنادق ؟ أليست مشاهدتهن أصبحت أمرًا عاديا مألوفًا ؟

من الذى فعل ذلك ؟

فعلته الفتاة المصرية قبل المجتمع ، فهى التى فرضت التغيير على هذا المجتمع ، وهى التى أجبرته على تغيير نظرته من الانبهار إلى الاحترام ..

ولهذا لا تعجب يا شريف إذا قلت لك إنك أنت وكل زملائك الشباب هم أملنا «نحن العواجيز» فى تغيير المجتمع وفى فرض احترامكم عليه ..

إننى أتطلع إلى مجتمع مصر وقد تحرر شبابه من عقدة الوظيفة ، وعقدة الكبرياء الفارغة التى تصيب خريج الجامعة ، تاركًا عشرات الأعمال التى يمكن أن يحقق من ورائها كسبًا ماديا كبيرًا للأمين ، حتى أصبحت الأمية فى مصر

ميزة تعطى صاحبها حق كسب الكثير ، بسبب تخلى أصحابها عن مظاهر الأنفة ومشاعر الغطرسة التى يصاب بها المتعلمون خريجو الجامعات !

وثق يا شريف أن هذا الوضع لن يطول ، فالوظائف الحكومية أصبحت محدودة ، وهناك خريجون يمضون خمس سنوات قبل أن يصلهم خطاب التعيين ، وربما يمضون فى السنوات القادمة أضعاف هذه المدة إذا تمسكوا بالعمل الوظيفى.

عزيزى شريف :

لماذا لا يبادر شبابنا بالتغيير ؟ أليس الشباب هو الثورة ؟

لك كل تقديرى وحبى ، وإلى لقاء فى رسالة قادمة بإذن الله.

الرجولة لا يصنعها الدخان

عزيزى شريف :

منذ خمس سنوات فى مثل هذا الوقت تقريبًا ، كنت فى زيارة للندن ، عندما عرفت أنهم حددوا يوم ٩ فبراير لنشر دعوة تطوف كل إنجلترا ، يطالبون فيها المدخنين بعدم التدخين فى هذا اليوم ، مجرد يوم واحد يصومون فيه عن التدخين ، ويجربون كيف تكون الحياة بغير سيجارة ..

فى ذلك الوقت قبل ٥ سنوات ، كان الحديث قد أصبح عاليا عن الأضرار الرهيبة التى تحدث للمدخن ، ولابد أن تعرف أن هذه الأضرار لم تكن معروفة حتى قبل عشرين سنة ؛ وبالتالى لم تكن المجتمعات تهتم كثيرًا بقضية التدخين ، بل على العكس كانت الحكومات تبدو كأنها تشجع مواطنيها على زيادة التدخين ، بسبب رسوم الضرائب العالية التى تفرضها على السجائر ، وتحقق من ورائها حصيلة وفيرة .

ولعلك لا تعلم أن علبة السجائر لا تكلف الشركة المنتجة غير ملاليم قليلة ، وأن الجزء الأكبر من السعر يذهب إلى حكومات الدول ، وفى بداية ظهور البترول فى دول الخليج العربى ، وانتقال هذه الدول من دائرة دول الفقر إلى الانتعاش ، فإن ثمن علبة السجائر فى أسواقها لم يكن يتجاوز خمسين مليمًا ، لأن حكومات هذه الدول قررت التنازل عن الضرائب التى تفرضها الحكومات الأخرى على السجائر .

وأول تقرير طبي عن أضرار التدخين ظهر في عام ١٩٦٤ ، ومنذ هذا العام بدأت الحرب بين أنصار المحافظة على صحة الإنسان وبيئته ، وشركات التدخين التي تكسب آلاف الملايين من وراء السم الذي توزعه في لفائف بيضاء على ملايين المدخنين في كل العالم ! !

وقد كانت مشكلة التدخين – ولا تزال – أنه عمل مشروع غير محرم دينيًا كما هو الحال بالنسبة للخمر ، ولكن مع تأكد الحكومات الغربية من الآثار الصحية الخطيرة الناتجة عنه ، فإن هذه الحكومات قادت حربًا ضارية ضد المدخنين بهدف محاصرتهم وتقليل عددهم .

لقد كان واضحًا أن هذه الحكومات تحقق كسبًا من وراء التدخين ، يتمثل في الملايين التي تحققها من الجمارك التي تفرضها على السجائر ، ولكن هذه الحكومات عندما حسبتها وجدت أنها في مقابل هذه الملايين المعدودة والمحدودة تخسر أعز شيء يمكن أن تملكه ، وهو قوة مواطنيها وصحتهم وقدرتهم على الإنتاج ، اكتشفت هذه الحكومات أنها بسبب التدخين تخسر كل عام آلاف المواطنين الذين يصابون بأمراض القلب والسرطان والضغط والشرايين والسكر ، وتتدهور صحتهم ويعتكفون للعلاج ويفقدون القدرة على العمل ، وكل هذا في السن العظيمة التي يكون فيها عطاء الإنسان أكثر ما يكون ..

وقد قامت هذه الحكومات أول ما قامت بإرغام شركات التدخين على وضع عبارة على كل علبة سجائر تحذر فيها المدخن من أضرار التدخين ، ثم في مرحلة أخرى طلبت الحكومات إلى هذه الشركات أن تضع على كل علبة عبارة «التدخين مضر بالصحة» ثم أخيرًا فإن كثيرًا من الحكومات لم تعد قانعة بهذه العبارة ، وإنما طلبت أن تكتب شركات الدخان على إنتاجها ما يوضح قائمة الأمراض الخطيرة والعديدة التي تصيب المدخن ..

وبالطبع فقد حاولت شركات التدخين مقاومة هذا الاتجاه ، لكنها لم تستطع برغم ما تملكه من قوة مادية . ولو أن هذه الشركات كانت لديها ذرة شك

واحدة فى أن التدخين لا يضر بصحة الإنسان ، لأقامت آلاف القضايا ضد الحكومات التى أرغمتها على الاعتراف بخطورة ما تنتجه .

وهكذا أصبحت السجائر السلعة الوحيدة فى كل العالم التى يعترف منتجها بأنها خطر على من يشتريها ؛ ومع ذلك فكما ترى هناك ملايين فى كل أنحاء العالم يتعاملون مع هذا السم الملفوف فى أوراقه البيضاء ! !

وأنا ضد الذين يقولون إن التدخين لا يعطى صاحبه متعة ؛ فالواقع أن المدخن يتمتع بمذاق السيجارة ، ولكن ثمن هذه المتعة رهيب ومكلف صحيا وماديا ، وأساس متعة المدخن سببه تسلل النيكوتين الموجود فى السيجارة إلى شرايين المدخن ، وتشبّع الدم بها إلى نسبة معينة ؛ بحيث إذا انخفضت هذه النسبة يحس المدخن بمن يدق أبواب جسمه وفكره ، ويطالب بسيجارة أخرى ، وقد وصل إدمان البعض إلى حد تدخين ٨٠ سيجارة يوميا ! ! ولك أن تتصور ماذا يمكن أن يحدث لأى مدخن أمسك بهذه السجائر ودخنها سيجارة بعد سيجارة ، ولم يغسل أصابعه أكثر من مرة ، إنك سوف تلحظ أن هذه الأصابع قد اصطبغت بلون أصفر ، سرعان ما يتحول إلى لون أسود ، وكل هذا فى خلال يوم واحد ، فماذا لو استمر هذا المدخن يدخن أسبوعًا دون أن يغسل أصابعه ، ثم لك أن تتصور لون أصابعه ، ثم بعد شهر واحد ، ثم بعد سنة ؟ !

وأنا أقول لك ذلك لأن ما يحدث فى الأصابع يحدث مثله فى الرئتين ، مع فارق أنه فى حالة الأصابع يستطيع الإنسان مداومة تنظيفها ، أما فى حالة الرئتين فلا يقوم الإنسان بنظافتها ، وتتراكم طبقات القطران والنيكوتين حتى تبدأ الأعراض الواضحة فى الكحة المشروخة ، التى نستطيع أن نميز بها كل مدخن ، ونكتشف كم هى تمزق صدره ، كما لو أنها سكين تحاول إزاحة طبقات السواد الكثيفة التى تراكمت فوق رئتيه لكى تشما الهواء ..

إن حرية الإنسان فى الدول الغربية مثل سويسرا وألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا وغيرها تفوق كل شىء ، حرية الفرد فى هذه الدول فوق كل شىء ،

ولكن حكومات هذه الدول برغم إيمانها المطلق بحرية الفرد ، قررت التصدى لحرية التدخين ، فالمدخن لا يستطيع اليوم أن يدخن سيجارته في أى أتوبيس أو سيارة تاكسى أو مستشفى أو سينما أو حتى مطعم ، فهناك أقسام خاصة فى المطاعم لا يستطيع أن يدخن فيها الزبائن ، حتى الفنادق أصبح هناك نوع جديد مخصص لغير المدخنين ، ووصل الأمر إلى إحساس المدخن بأنه إنسان منبوذ مضطهد ! !

وكل هذا ، كما قلت ، فى دول تقدس حرية الفرد ، وتحرص عليها ، ولكن هذه الدول اكتشفت أنه بجانب حرية المدخن هناك حرية أغلى وأفضل ، هى حرية غير المدخن ، وإذا كان المدخن يهوى أن يقتل نفسه قتلاً بطيئًا ، فإن هناك من يعشق أن يعيش ويتمتع بحياة سليمة ، ويستنشق هواء نقيًّا خاليا من الكربون المميت الذى يحويه دخان السجائر ، ولعلك قرأت أخيرًا أن غير المدخن إذا ابتلع دخان المدخنين الذى ينفثونه فى الهواء يتعرض لنفس الأخطار التى تصيب المدخنين ، بل أكثر من هذا لعلك قرأت عن الأم الحامل وكيف أن جنينها يتأثر بالسجائر التى تدخنها !

ومشكلة التدخين الأخرى أنها تصيب من يتعلق بها بنوع من الإدمان الذى يجعل المدخن أسير السيجارة ، وما أكثر المدخنين الذين تجدهم فى «عز الليل» يتركون بيوتهم وهم يتجولون فى الشوارع بحثًا عن «كشك سجائر» مفتوح .

إنه نوع رهيب من الذل يحس به المدخن تجاه السيجارة ، إذلال للنفس وللصحة وأيضًا للجيب ، فلو حسب المدخن ثمن السجائر التى ابتلع دخانها ، وحسب ثمن العلاج الذى سيضطر إليه لسداد فواتير الأطباء الذين سيزورهم ، وروشتات الأدوية التى سيصرفها وغير ذلك ، لوجد أنه سوف يضيع تقريبًا ثلث دخله على متعة ، أمتع منها بكثير ألا يدخن ..

نعم أمتع من التدخين ألا تدخن ، فأنت فى هذه الحالة تشعر بأنك أفضل كثيرًا من هؤلاء المدخنين الذين دخلوا سجن السيجارة اللعين ، وأصبح صعبًا عليهم الخروج منه ..

أمتع من التدخين أن تجد نفسك غير مدخن ، جيوبك نظيفة ، وأنفك نظيف ، وفمك نظيف ، وصدرك نظيف ..

أمتع من التدخين أن تدخل بيتك فلا تشم فيه تلك الرائحة النتنة الخانقة التى تجدها فى بيوت المدخنين ويسممون بها أطفالهم ..

أمتع من التدخين أن تكون غير مدخن ، فلا تسمع صوت الأوركسترا النشاز التى يسمعها المدخن وهو يصعد درجات السلم ، أو عندما يجرى وراء الأوتوبيس ، أو بعد مشوار سار فيه نصف ساعة ..

أمتع من التدخين أن تكون إنسانًا متحررًا من هذه العادة القبيحة ، وألا تضطر – فى بعض الأحيان – أن تغلق على نفسك الحمام لكى تدخن هربًا من الآخرين ..

إن بعض الشباب – وقد كنت فى سنه – يعتقد أن من علامات الرجولة أن يدخن ، وهناك مثل فرنسى يقول : فى السن الصغيرة يدخن الكثيرون لكى يثبتوا لأنفسهم أنهم رجال ، وفى السن الكبيرة فإنهم يحاولون الامتناع عن التدخين لنفس السبب !!

وأنا أقول لك بكل الإخلاص إن الرجولة ليست فى سيجارة وولاعة ، بل على العكس ..

كما أنه ليس صحيحًا أن السيجارة تساعد على التفكير ، وإذا كنت تجد بعض الكتاب يدخنون فغيرهم كثيرون جدًا لا يدخنون ، توفيق الحكيم ونجيب محفوظ ومصطفى أمين والدكتور زكى نجيب محمود وأنيس منصور وغيرهم وغيرهم من الأسماء اللامعة فى سماء الفكر والأدب ، كلهم لا يدخنون ..

وقد ارتبط التدخين لفترة بنجوم السينما ، ولكن أخيرًا بدأ هؤلاء النجوم يحاولون عدم التدخين ، حتى فريد شوقى الذى كان يدخن فى اليوم الواحد مائة سيجارة ، له اليوم ١٢ شهرا لم يدخن ، وقد اعترف لى بأنه كان ممسكًا بالسيجارة بين أصبعيه ، وكان يزور مدينة فرانكفورت الألمانية ، وكان عليه أن يصعد أحد الأدوار عن طريق السلالم المتحركة ، ولكن تصادف تعطل هذه السلالم ، فاضطر إلى الصعود على قدميه ، وفى منتصف الطريق وجد نفسه يستند إلى الحائط وهو يلهث ، وعندما نظر خلفه وجد أن كل الذى صعده هو عشر درجات ، ولكنها كانت بالنسبة له أشبه بمن جرى عشرة كيلو مترات ، وفى لحظة ألقى فريد شوقى السيجارة من يده و «فعصها» بقدمه ، وقرر ألا يعود إليها..

عزيزى شريف :

لست من هواة النصح والإرشاد ، ولكننى فقط أردت أن أضع أمامك بضعة سطور عن السيجارة والتدخين بمناسبة يوم ٩ فبراير ، تاركًا لك حرية اختيار الطريق الذى تسلكه ، إن لك أن تأخذ تجارب الآخرين ، ولك أن تعطيها ظهرك ، فلن يدفع الثمن غيرك ، ولكن حبى لك يجعلنى أتمنى ألا تدفع هذا الثمن ، أن تدخره لأشياء كثيرة أخرى سوف تحتاج فيها إلى صحتك وإلى قوتك وإلى كل قرش تبدده دخانًا فى الهواء ، وثق دائمًا أن الرجولة لا يصنعها الدخان ، وإنما يصنعها كفاحك الذى ستواجه به الحياة ..

لك حبى وأجمل الأمانى ، وإلى أن نلتقى فى رسالة قادمة بإذن الله ، أرجو لك أطيب الأوقات..

الغرف على الورق

عزيزى شريف :

سألت الفنان الكبير محمد عبد الوهاب يومًا هل يمكن أن يقوم بتلحين كلمات الأغنية الواحدة أكثر من ملحن ، بمعنى أن يقوم ملحن بإعادة كتابة لحن جديد لأغنية قديمة ، واستغرب منى الفنان الكبير هذا السؤال لكنه أجابنى بأنه لا يتصور إمكان ذلك لأن الأغنية بعد تلحينها يصبح هذا اللحن شهادة الميلاد والحياة بالنسبة لها ، ومن الممكن إعادة توزيع اللحن كما يحدث حاليا بالنسبة لبعض الالحان القديمة ولكن لا يمكن تغيير العمود الفقرى الذى يقوم عليه هذا اللحن ..

وبالفعل فإنه عمليا لم يحدث أن رأينا ملحنًا يستعيد كلمات أغنية قديمة ويعيد صياغة لحن لها بحسب رؤيته ومفهومه .. وهو ما يميز اللحن عن الكتابة ، فالكاتب يمكنه أن يعيد كتابة فكرة قديمة بأسلوب جديد ورؤية خاصة ، وكثير من الأفكار التى نتداولها فى الأدب والسينما والمسرح أفكار قديمة لكن توزيع الأدوار وتركيبة الدراما فيها تختلف ، ولعلك لا تعرف أن جيلنا عاش مرحلة طويلة مما يمكن أن نطلق عليه مرحلة الحب الرومانسى ، الحب الذى يكتفى فيه العاشق بنظرة من عينى محبوبته ، والذى يدوخ فيه المحب حتى تطل الحبيبة من وراء شيش النافذة ويخطف نظرة إلى محياها ووجهها ، كان للنظرة ثمن ، وكان للحب عذاب ونار ، بل لعل حلاوة الحب وقصته قديمًا كانت فى هذا

العذاب الذى يعيشه العاشق ، وكان أهم ما يميز أية قصة حب المأساة التى لابد وأن تكون فصلاً بارزًا فيها ، ولو راجعت أشهر قصص الغراميات لوجدت أنها تدور حول المأساة ، وربما كان من أشهر قصص الحب وعقدة المأساة فيها قصة غادة الكاميليا التى فى فحواها تدور بين بطلين أحدهما من طبقة أعلى من الآخر ، وبعد أن يتفقا على الزواج ، يتدخل أبو أحد الطرفين ، ويرجو الطرف الآخر الأقل درجة حتى يتنازل عن حبه ويضحى بعواطفه من أجل سمعة الطرف الآخر ، وتقبل الفتاة رغم ظروفها القاسية ومرارة الصدمة ، تقبل التضحية وتمثل على الشاب أنها كانت تمثل عليه الحب ، وقد جاءت اللحظة التى تواجهه بالحقيقة ، فتكون الصدمة ويكون الفراق والبعاد ، وتدور الأيام ويكتشف الشاب التضحية التى قدمتها الفتاة وهو الذى ظلمها ويحاول أن يعوض ذلك ولكن بعد فوات الأوان ..

وعقدة غادة الكاميليا كما ترى هى أن يدوس أحد العاشقين على عواطفه ومشاعره مضحيا من أجل إسعاد الطرف الآخر كما تقضى بذلك حبكة القصة ، أو الرواية ، وقد تم إعادة تأليف فكرة غادة الكاميليا بأوضاع مختلفة عديدة إلى درجة أنه من النادر أن تخرج أية قصة حب عن عقدة غادة الكاميليا التى ما أكثر الدموع التى ذرفها ملايين المشاهدين وهم يتابعون رؤيتها ومشاهدتها ..

ولكن هذا زمان ولى وانقضى ، فكما أصبحت ترى لم تعد هناك الأفلام أو المسرحيات التى تدور حول قصص الحب والعواطف كما كان الأمر منذ عشرين أو ٢٥ سنة ، ومثل هذا التطور لم يحدث فى مصر فقط وإنما أصبح موجودًا فى الأفلام العالمية التى ينتجها أكبر مصنع للأفلام فى هوليوود ، لقد تحولت السينما إلى ما أسميه قصص التحقيقات الصحفية التى تعالج مشاكل طارئة وقتية يواجهها المجتمع فى زمن أو فى سنوات معدودة ثم ينتقل منها إلى مشكلة أخرى جديدة ، تظهر مع تطور القضايا والمشاكل ، وهذا ما يفسر كيف أن موضوعات الأفلام أصبحت تتركز فى فترة حول السلع الفاسدة وتجار الانفتاح

الذين يثرون من ورائها ، ثم تنتقل فى مرحلة أخرى إلى حكايات العمارات التى تسقط لسوء بنائها ، ثم المخدرات ، ثم شركات توظيف الأموال ، ثم حوادث الاغتصاب التى جرت فى فترة من الفترات ، وكل هذه المشاكل من نوع القضايا والتحقيقات الصحفية التى تقرؤها فى الصحف والمجلات .. ونظرًا لارتباط عقدة الفيلم بمشكلة طارئة سرعان ما تطويها الأحداث وتغطيها موجة جديدة من المشاكل والقضايا افتقدت الأفلام قدرة الاستمرارية وإمتاع المشاهدين بالفرجة عليها سنوات طويلة وهو مالا تجده فى الأفلام القديمة التى تدور حول العواطف .. فكل أفلام فريد الأطرش ، وعبد الحليم حافظ وليلى مراد ، ومحمد فوزى ، ومحمد عبد الوهاب كلها قصص حب ، ولأن الحب مشاعر أبدية لهذا لا يشعر المتفرج لهذه الأفلام ببعد المسافة بينه وبين الزمان الذى أنتجت ومثلت فيه ..

ولقد أخذنى الحديث بعيدًا عن الموضوع الذى كنت أريد أن أكتب إليك فيه ، فأنا كما تلاحظ بدأت بالكلام عن ألحان الأغانى ، وهل يمكن لأى ملحن أن يعيد صياغة أو وضع لحن جديد لأغنية قديمة وهو مالا نجده ، ولم يحدث ، بينما فى الأدب والصحافة يحدث كثيرًا أن تتعدد كتابة الفكرة الواحدة بصور مختلفة تختلف بحسب صاحب القلم ..

هذا مع أننى أعتبر الكتابة نوعًا من العزف على الورق ، ولعلى فى ذلك أحاول إجابتك عن سؤال كثيرًا ما رددته لى فى خطاباتك ، وهو محاولة معرفة كيف يمسك مشاهير الكتاب بالقلم ويكتبون ، أو على الأصح يعزفون على الورق ألحانهم الأدبية ، والصحفية والفكرية ، وأنت تعرف أن معظمهم إن لم يكن كل الكتاب الأجانب لا يستخدمون القلم فى الكتابة وإنما يدقون بأصابعهم ما يريدون كتابته على الآلة الكاتبة ، التى يتعلمون استخدامها من الصغر ، أما فى مصر فلا أعرف من جيلى سوى كاتب واحد هو الزميل الأستاذ إبراهيم سعده الذى يستخدم الآلة الكاتبة فى كتابة مقالاته ، والواقع أنه فعل

ذلك لظروف خاصة واجهته فى بداية عمله الصحفى ، عندما أوفدته أخبار اليوم ليكون مراسلاً لها فى جنيف ، وكانت نصيحة الكاتب الكبير الراحل على أمين إليه أنه سوف يذهب إلى مجتمع مختلف عن المجتمع المصرى وأنه من بين صور الاختلاف أن العاملين فى الصحافة فى أوروبا لا يستخدمون القلم فى الكتابة ، بل إن كل واحد منهم يحمل آلته الكاتبة ويكتب عليها أخباره ومقالاته ورسائله ، ولسوف يكون منظره شاذًا إذا جلس بين هؤلاء الصحفيين يكتب رسائله بالقلم ، واستجاب إبراهيم سعده لنصيحة الأستاذ على أمين وبدأ يتعلم الكتابة على الآلة الكاتبة حتى أصبحت روتينًا ثابتًا من روتين عمله ..

ولست شخصيًا أتصور كيف يمكن للكاتب أن يعبر عن أفكاره بوسيلة أخرى غير القلم ، فسن القلم كما يبدو لى وربما لغيرى من الكتاب ، هو الريشة التى تعزف بها على الورق ما تتصوره ألحانًا وأنغامًا .. وأنا شخصيًا أهتم كثيرًا بالقلم الذى أكتب به ، تصورًا بأنه من أهم العوامل المساعدة أو المعوقة فى الكتابة ، ولهذا من النادر إلا عند الضرورة القصوى جدًا أن أستخدم قلم الحبر الجاف فى الكتابة ، لأنه يحتاج إلى جهد عضلى ، إنه يبدو كما لو أننى أحفر به على الورق ، كذلك لا أستطيع تصور إمكان أن أقوم بإملاء أفكارى رغم أننى فى طفولتى كنت أسمع من والدى رحمه الله ، وكان معجبًا بالمرحوم محمد توفيق دياب وهو من جيل كتاب الكفاح الوطنى ، ضد الاحتلال البريطانى لمصر الذى بدأ فى يوليو عام ١٨٨١ ، واستمر حتى يونيو عام ١٩٥٦ ، كان والدى يحدثنى عن توفيق دياب وكان يسبق اسمه تعبير «الكاتب المجاهد» وكيف أنه يروح ويجىء فى غرفته وهو يخطب بكلمات مقالاته التى يقوم سكرتيره بكتابتها على الورق ، ولا أستطيع تصور كيف أن يملى الكاتب مقالاته ولا يترك كلماتها تنساب فوق الورق متدفقة من سن قلمه ..

ومن بين مشاهير الكتاب من ينتمى إلى ما يمكن أن نسميه «مدرسة» القلم الرصاص والأستيكة ، وكان عميد وناظر هذه المدرسة المرحوم الكاتب العظيم

الأستاذ توفيق الحكيم الذى ظل طويلاً يستخدم القلم الرصاص والأستيكة فى الكتابة ، وقد كان خط توفيق الحكيم جميلاً وكلماته واضحة وسطوره مستقيمة وكان أكثر ما يحرص عليه ألا تكون هناك كلمة مشطوبة ، ولهذا كان يستخدم وسيلة يخفى بها أية كلمة يكتبها ثم يعدل عنها ، وكان قليلاً ما يفعل ذلك ولكنه وجد نفسه يستخدم القلم الرصاص والأستيكة .. وعندما ناقشته فى ذلك مرة فهمت منه أنه كان يخاف من العامل الذى يصف كلماته فى المطبعة أن ينتقده إذا وجد شطبًا فى الصفحات ، فكان يحاول أن تكون صورته أمامه جميلة وواضحة ، ولكن فى السنوات الأخيرة من حياته عدل توفيق الحكيم عن استخدام القلم الرصاص والأستيكة وأصبح يستخدم القلم الجاف والقلم الحبر أيا كان الموجود ، دون أن يركز كثيرًا كما كان يفعل من قبل ولسنوات طويلة على نوع القلم الذى يكتب به ، كذلك فإنه لم يكن يهتم كثيرًا بنوع الورق الذى يكتب عليه سواء كان أبيض أو أملس أو خشنا وهو ما يحرص عليه كتاب آخرون سوف أتحدث إليك عنهم ..

ومن مدرسة القلم الرصاص والأستيكة الأستاذ أحمد بهجت الذى يستعد للكتابة «ببرى» عشرة أقلام رصاص يمسكها فى يده ، ويستشعر منها قوة دافعة لتحريكه على الكتابة ، ولكنه على عكس أستاذنا الكبير توفيق الحكيم ، يستخدم ورقًا مسطورًا فى الكتابة ، ولعل ارتباطه بكتابة «صندوق الدنيا» وهو الباب اليومى الذى يكتبه فى جريدة الأهرام وتحديد مساحة هذا الباب فى جعله يحافظ على كتابة مساحة معينة لا يتجاوزها حتى يأتى ما يكتبه متفقًا مع المساحة المطلوبة .

كذلك من أنصار أو أعضاء مدرسة القلم الرصاص والأستيكة الكاتب الساخر يوسف عوف الذى يكتب كلمات واسعة جدًا سواء بين الكلمات أو السطور ، ولكنه يستخدم ورقًا من نوع واحد أسمر اللون وله ملمس خشن وهو نوع من الورق غير عادى ولابد أن يشتريه بكميات كبيرة من إحدى المكتبات

ويختزن منه الكثير ، فلم يحدث أن قرأت له مقالاً أو مسرحية أو سيناريو أو عملاً أدبيًا على ورق مختلف ..

إن كل هذا لم يكن سوى بداية ، ففي خلال ٣٧ سنة من العمل الصحفى المستمر أتيح لى أن ألتقى بكبار الكتاب وأن أقترب من حياتهم وأكثر من ذلك أشاهدهم فى لحظات الولادة التى يواجهها كل كاتب عندما يمسك القلم ويجرى به فوق السطور معبرًا عن أفكاره ، مصطفى أمين وهيكل وإحسان عبد القدوس وأنيس منصور وبهاء ونجيب محفوظ ويوسف السباعى وزكى نجيب محمود ويوسف إدريس وربما غيرهم ، إنها رحلة فى عالم المشاهير من كتابنا لعلى أستطيع أن أجيب عن سؤالك لى عنهم كيف يكتبون ، وأنا أقول بل كيف يعزفون أنغامهم وأفكارهم على الورق ، وإلى أن نلتقى فى رسالة جديدة أرجو لك أجمل الأمانى والأمنيات .

تمتع بأحلامك ولا تخف

عزيزى شريف :

هل أنت خائف على نفسك من أحلامك ؟

هل تخشى أن تسوقك هذه الأحلام وتغوص بك إلى أعماق بحار الخيال بعيدًا عن شاطئ الواقع كما يجب أن تعيشه وتراه ..

إننى أرجو فى سنك ألا تستمرئ حياة الواقع ، وألا تخشى أحلامك وخيالاتك ، أو تتصور أنها نوع من الجنون ، أو أنك إنسان غير عادى لأنك تعيش هذه الأحلام وتتمكن منك ..

إن أحلام الشباب جزء من جمال سنهم وفكرهم ومشاعرهم ، والشباب الذى لا يحلم مثل الأرض التى لا تنبت ..

ولكن الكثير من الشباب ، ولا أريد أن أقول كل الشباب ، يخافون على أحلامهم من أن يراها الآخرون فيتهموهم بالجنون ..

إنك يا عزيزى لست مجنونا ولكنك تعيش عمرك ...

وفى مسيرة حياتى عشت مثل أحلامك وأغلقتها داخلى واعتبرتها سرًّا من أغلى أسرارى التى لم أكشفها لأحد أبدًا ، ولعلها المرة الأولى التى أتحدث فيها عن تلك الأحلام .

بل لعلى أعترف لك بأننى أصبحت أتوق إلى أيام هذه الأحلام ، وإلى أجنحتها التى كانت تحملنى وتحلق بى بعيدًا بعيدًا فى عالم أتمثل فيه حلمى وأسعد به وأغلق عينى على صوره الجميلة ..

وعندما أستعيد هذه الأحلام أعجب لعدد الشخصيات التى عاشت داخلى وكنت أتصور أننى هى ..

كانت أول شخصية حلمت بها هى شخصية الممثل جلين فورد ..

وقد كان جلين فورد فى صباى وشبابى من أبرز نجوم السينما الأمريكية ، لكنه لم يكن فى حلاوة روبرت تايلور أو جاذبية كلارك جيبيل ..

ولعلنى اخترته وتمثلته لهذا السبب .

لقد اكتشفت أننى أبحث عن إنسان هادئ وسيم عاقل فى غزواته النسائية .

ولثلاث سنوات أو أقل ظللت أعشق شخصية جلين فورد ، لدرجة أننى تصورت أنه أنا ، وأننى هو ، وأن الأفلام التى يمثلها من بطولتى أنا ..

وكنت أحرص على حضور العرض الأول لكل فيلم جديد تعرضه سينما مترو ، وكانت هى السينما المتخصصة فى عرض أفلامه ، وكان يخيل لى وأنا أخطو من باب السينما ، أن كل المتفرجين يشيرون إلىّ باعتبارى نجم الفيلم الذى سيشهدونه ، وربما بعد انتهاء الفيلم كنت أقف بضع لحظات لأحيى هتاف الجمهور وتصفيقهم وإعجابهم بدورى وأدائى فى الفيلم الذى انتهى عرضه توا ..

وكنت أكثر من ذلك أتخيل أن لى رحلات عديدة بين مصر وأمريكا ، أسافر فيها لتمثيل أدوارى فى الأفلام التى كنت أقرأ أن جلين فورد تعاقد عليها ، ثم أعود بعد ذلك إلى بلدى لأواصل حياتى العادية ..

وعندما لمع اسم دروبنى ، وهو لاعب تنس تشيكوسلوفاكى هرب من بلاده بسبب الشيوعية ولجأ إلى مصر ، وأصبح يلعب بطولة نادى الجزيرة السنوية

للتنس باسم مصر ، وكنت قد عشقت لعبة التنس ، عاش دروبنى فى خيالى عدة سنوات أخرى ..

ثم تخليت عن دروبنى عندما عشقت مدرسة فن التمثيل الجديد الذى جاء به مارلون براندو الذى لمع اسمه بصورة خارقة ..

وكان مارلون براندو هو الخطوة الجديدة فى طريق السينما التى لا تعتمد على البطل الجميل الذى يفتن قلوب النساء بوسامته وشكله وشعره الناعم ..

لم يكن مارلون براندو ينتمى إلى طابور تايرون باور وكارى جرانت وجيمس ستيوارت وكلارك جيبيل وغيرهم من نجوم السحر والجمال ، وإنما كان ينتمى إلى مدرسة الأداء التى تغطى على الشكل ، وهى المدرسة التى لمع فيها بعد ذلك أنتونى كوين وشارلتون هستون وغيرهما ..

وعندما مثل مارلون براندو دور نابليون فى فيلم ديزريه أذكر أننى شاهدته أكثر من عشر مرات ..

وظل براندو يعيش داخلى حتى أصبحت أخاف على نفسى منه ، فقد كان يخيل لى أن شخصيته لا تفارقنى ، وأننى سأظل أسير هذه الشخصية بكل الأحلام الكبيرة الواسعة التى أصبحت أعيش فيها منذ اعتقدت أننى مارلون براندو ..

ولكن دون أن أدرى وجدت نفسى أفارق مارلون براندو ، وأعجب بشخصية محمد التابعى وأحلم بضعة شهور أننى محمد التابعى .

كنت قد عرفت طريقى إلى الصحافة عن طريق الأحلام أيضا ، فقد قررت بينى وبين نفسى أن أكون صحفيا ، وقررت بينى وبين نفسى أن أصدر مجلة أرأس تحريرها ..

هكذا من أول لحظة أصبحت رئيس تحرير ..

وأصدرت المجلة ، ووزع العدد الأول منها ١١٢ ألف نسخة . وتلقيت آلاف البرقيات ، وكتبت فى العدد الثانى أشكر كل أصحاب هذه البرقيات

التى أضافت تهانيهم إلى مسئولياتى كرئيس تحرير أعباء جديدة ، قلت لهم فى الكلمة التى كتبتها إننى أرثى لحالى من تحملها ..

ولم أكتف بإصدار مجلة واحدة ، بل أصدرت مجلة أخرى ، ثم أصدرت جريدة يومية ، وأصبحت فى أقل من سنة مالكا لدار صحفية كبيرة تصدر مجلتين أسبوعيتين ، إحداهما تصدر يوم الخميس والثانية تصدر يوم الأحد ، إلى جانب جريدة تصدر يوميا ، وأرقام التوزيع تزداد ..

وأنا مشغول بعملى الصحفى المرهق ، ملتزم بإصدار كل مجلة فى موعدها الذى التزمت به أمام آلاف القراء ..

آلاف القراء ..

كلهم كانوا يعيشون فى خيالى .

ومجلاتى التى رأست تحريرها وأطبع منها آلاف النسخ كنت أكتبها على ورق الكراسة من نسخة وحيدة لا يراها أحد ..

فعلاً لم يكن يراها أحد .

ولم يكن يعرف بهوايتى الغريبة غير أخى الأكبر الذى وجد أن هذه الهواية التى ترغمنى على البقاء فى المنزل أفضل كثيرًا من التسكع فى الشوارع ..

وحتى أكتب الصحف والمجلات التى أصدرها كان علىّ أن أقرأ ، فقد اكتشفت أن الكاتب لا يستطيع أن يكتب إلا إذا قرأ ..

وفى البداية يتأثر الكاتب بالرأى الذى يقرؤه ، ثم مع بلوغه مرحلة النضج يصبح ما يقرؤه هو الرحم التى تنمو فيها أفكاره الخاصة ..

إن القراءة تصبح للكاتب مثل عود الكبريت والشطاطة ، فمن احتكاك الاثنين تتولد النار ، وكل كاتب له ناره الخاصة ، أو هكذا يجب أن يكون ..

هل أطلت عليك عزيزى شريف فى الحديث عن أحلامى ؟

إننى لم أحدثك عن غزواتى النسائية التى عشتها . ولا عن المعجبات ، فلم تستهونى هذه الغزوات طويلاً ؛ لأننى كنت حتى فى أحلامى مشغولاً بأحلامى الأخرى كرئيس تحرير وصاحب مؤسسة صحفية ومجلات ودار نشر وصحفيين كثيرين يعملون تحت يدى ..

لقد كان عالمًا جميلاً عشته بكل مشاعرى ..

واستمر هذا العالم معى فترة طويلة وأنا لا أصدق أننى سأستطيع التخلص منه ..

ولا أذكر على وجه التحديد متى استطعت أن أتخلص منه ؟

ربما لأننى أصبحت أعيشه فى دنيا الواقع ؛ فقد انتقلت فعلاً إلى العمل الصحفى ، ودخلت دوامة الحياة التى يدور فيها الإنسان كمسئول وزوج ورب أسرة ..

لقد انتهت الأحلام ..

لم يعد في قدرتى أن أحلم حتى إن حاولت لم أستطع ، لأننى أعرف أنه حلم وأننى أكون مجنونًا إذا فكرت أن أحلم ..

الشباب وحده هو المسموح له بأن يحلم ، وأن يمتطى أجنحة الخيال ، ويذهب إلى أى مكان ، ويختار أى شخصية ويعيشها .. إن البعض يتمثلون أنفسهم مليونيرات وهم يعيشون فى قاع الفقر ، لكنهم فى داخلهم بينهم وبين أنفسهم وداخل أحلامهم يتصرفون كمليونيرات .

لماذا لا ..؟

إنه الشباب ..

أجمل سنوات العمر ..

فإذا كنت تحلم يا ولدى فلا تخش على نفسك من أحلامك ، لا تتصور أنك إنسان غير عادى ، بل تمتع بأحلامك ، وتأكد أنك دون أن تدرى سوف

تتخلى عنها ، ويومًا ستجد نفسك بلا أحلام ، وستتمنى هذه الأيام الجميلة التى كنت تعيشها مع أحلامك ، ومع شخصياتك العديدة .

عزيزى شريف :

عش أحلامك يا ولدى ولا تخف..

بوليصة تأمين .. للأبد

عزيزى شريف :

ها نحن أولاء نعيش هذه الأيام فى أعظم وأكرم وأفضل شهور السنة ، فى شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

إننى أرجو ألا تغرك سن الشباب وقوته فيفتنك عن دينك وعن صلاتك وصومك ، ولست أريد أن أحتل مقعد الواعظ وأحدثك حديث خطباء المساجد فما أنا منهم ، ولست أحمل مؤهلات التعمق التى يحملونها فى كتب الدين وشئونه .. ولكننى بالإدراك الحقيقى أيقنت أنه لما كان من المستحيل أن يكون هناك أى مجتمع أو نظام أو كيان بغير قانون يضبطه ويحدده ، فقد أدركت أن هذا العالم الذى نعيش فيه يحكمه قانون لا يمكن أن يكون من صنع إنسان ، لأن الذى وضع القانون يملك أن يغيره فى أى وقت ، فهل رأيت يومًا إنسانًا أو مخلوقًا استطاع أن يغير شروق الشمس أو مواعيد ظهور واختفاء القمر ، أو يصنع ريحًا وعواصف ؟ ثم إنك لابد سمعت عن العقل الإلكترونى الأمريكى الذى يجرى ٢٥٠ مليون عملية فى الدقيقة الواحدة ، ولك أن تتصور ضخامة هذه العمليات ،ومع ذلك ورغم كل التحرزات والاحتياطات وجيش العلماء والباحثين الذين كانوا يخططون لسفينة الفضاء تشالينجر ، فقد تحطمت بعد ثوان من إطلاقها نتيجة خطأ بسيط لم يكتشفه عالم واحد من جيش العلماء

الذين أعطوا حياتهم لهذه العملية ، فهل يمكن تصور أن هذا العالم يمكن أن يكون في يد مخلوق معرض للخطأ ؟ لابد أن الذى وضع قانون هذه الدنيا أعظم وأكبر من أى مخلوق ، فإذا كان الأمر كذلك فلابد أنه الله ..

وإذا كان العقل البشرى قد وصل إلى اختراع العقل الإلكترونى الذى يجرى ٢٥٠ مليون عملية فى الدقيقة ، فلماذا نستكثر وجود الله الذى يملك مراقبة كل الملايين والبلايين من مخلوقات وكائنات حية فى كل لحظة ، بل كل همسة ؟!.

العقل إذن لابد أن يقود إلى الحقيقة وهى أن الله موجود ، وإذا كنا فى حياتنا الدنيا ندين للحاكم بالولاء والشرعية ، ونؤمن بأنه مادام هو الحاكم الشرعى للبلاد فيجب أن نطيعه ، فما بالك بالحاكم الذى لا مثيل له ؟ وما بالنا بالحاكم الذى لا يموت ولا ينام ولا شريك له فى حكمه ، ويملك كل ما فى السموات والأرض ؟ أية طاعة يجب أن ندين بها له ؟

ولابد أنك فى قراءتك عرفت أن الإنسان أدرك منذ آلاف السنين وجود قوة خارقة تقود هذا الكون وتملكه وتحكم قوانينه .

وقد تصور الإنسان هذه القوة الخارقة فى أشياء مادية كثيرة : فى الماء وفى النار وفى الأوثان ، وفى وقت واحد فإن الإنسانية كانت ممزقة فى محاولات بحثها عن هذه القوة الخارقة المالكة ، فأرسل الله أنبياءه ورسله يهدون الناس إلى هذه القوة ليجمعهم وينهى خلافاتهم فى الرب الذى يعبدونه ، فلا نار ولا ماء ولا جبال ولا حيوانات ولا أوثان ولا أصنام .. بل إنه الله .. الله .. الله ..

فالبداية إذن كانت التعريف بالله ، ولأن الرسل من البشر فقد خصهم الله بالمعجزات التى تجعل الناس فى زمانهم يصدقونهم ..

إن أية رسالة لا تستطيع أن تؤمن بها إلا إذا صدقتها ، ولهذا كان من الضرورى أن يصدق الناس الرسل والأنبياء ، فكان أن جاء كل رسول بمعجزة ، شاهدها أهله وقومه ، إلى أن جاء الإسلام ليكون خاتم الأديان ، وبعث الله محمدًا ليكون خاتم الأنبياء ولكل البشر ..

ولكن كيف ؟

كيف يصدق الناس محمدًا وهو كإنسان لابد أن يموت ككل البشر ؟

كيف يحمل الناس معجزاته إلى الذين سيجيئون بعدهم ؟

إن كل ما نسمعه عن معجزات السيد المسيح لم يرها أحد من الذين يعيشون اليوم ، إن كل هذه المعجزات بالسمع ، لكن أحدًا لم يعاصرها من أحياء اليوم ، فكيف تدوم المعجزة ؟ أو بمعنى آخر ما هى المعجزة التى يمكن أن تدوم وتستمر ويحسها الإنسان فى كل عصر وكل زمان ، ومهما توالت الأيام وجرت السنون ؟

المعجزة هى القرآن ..

معجزته الكبرى هى القرآن ..

إن اللغة لا تموت إلا بانتهاء العالم ، فمادامت هناك حياة فلابد أن تكون هناك لغة يتحدث بها الناس ويتعاملون ويتفاهمون ..

وفى العربية فإن الحديث أو الكلام أو اللغة يمكن أن تأخذ ثلاث صور : الشعر والنثر والعامية ، ولهذا جاء القرآن مختلفًا عن أية صورة من الصور الثلاث ، إنك تسمع فيه موسيقى الشعر وليس بشعر ، وتجد فيه صورة النثر ولكنه ليس بنثر ، وإذا كانت أية عمارة أو بناء هندسى مثل الأهرامات تستوقف الإنسان طويلاً أمام روعة العقل الذى صممها ، فإن التوقف أمام كلمات الآيات سوف يدهشك ويستوقفك وكثيرًا كثيرًا ، أكثر من التوقف أمام أى بناء هندسى ، لقد مضى أكثر من ١٤٠٠ سنة على نزول القرآن ولكن معجزته لم تتوقف ولن تتوقف ..

إنك تعلم أن المجتمع الإنسانى فى تطور مستمر ، من عصر إلى عصر ، وهو فى هذا القرن سجل من التقدم والاختراعات ما لم يسجله فى الـ ١٩ قرنًا الماضية ، ومع ذلك فإن الإنسان الذى يتأمل فى القرآن يجد أنه يكتشف فيه الجديد الذى يلاحق عصره ويتكلم لغة تطوره ، ولا شك أن السنوات القادمة

بالآلاف أو الملايين سوف تشهد تطورًا أكثر وأكثر ، ولكن كل عصر مهما تطور ومهما بلغت درجة تفوقه ، سوف يجد نفسه راكعًا أمام معجزة القرآن ..

إننى أريد أن ألفت نظرك إلى أن آية من خمس كلمات يقول فيها الحق : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ ، وإذا تأملت العالم تجد أن صراع البشرية فى تاريخها المستمر يدور حول المال والبنين ..

وسوف تكتشف شيئًا آخر أن القرآن تضمن أحكامًا للعبادة لا مجال فيها لاجتهاد المفسرين ، ولكنك ترى قضايا أخرى متروكة للاجتهادات التى يصل إليها المفسرون بحسب حدود رؤيتهم المكانية والزمانية ، ومع ذلك فسوف تجد أن القرآن قد تضمن موضوعين محددين من موضوعات الحياة تعرض لهما بالتفصيل ، وهما قواعد الإرث والزواج ..

أليس غريبًا أن القرآن وضع بالتفصيل قانون الميراث ، وحدد نصيب كل فرد فى الميراث مهما كانت درجة قرابته ؟

أليس لافتًا للنظر أن القرآن أيضًا حدد على وجه اليقين والتفصيل المحرمات فى الزواج ؟

لماذا ؟ حتى يحمى الله الأسرة ويجمع أفرادها وتقوم على أساس سليم ، ولا تتفتت وتتمزق بوفاة رب الأسرة ومحاولة كل منهم تحديد نصيبه من الميراث على مزاجه ..

وإذا أنت فكرت فى الإرث والزواج تجد أنهما يدخلان فى المال والبنين .

وكل الذى قلناه باختصار شديد لا يتناول أكثر من بضع آيات ولكن كل آية فى القرآن قضية فى حد ذاتها ، وأول ما يلفت النظر فيها البناء الغريب الذى لا يستطيع بشر أن يغير مكان كلمة بكلمة ، ولا حرفًا بدلاً من حرف .. ثم بعد ذلك المعانى العميقة الواسعة ، بحار ومحيطات المعانى التى كلما غاص فيها عصر من العصور وجد الكنوز والدرر ..

هذه هى المعجزة المستمرة الباقية ، المعجزة التى تؤكد أن هذا الكلام ليس من صنع بشر ، وإلا كان من الممكن مثلاً أن يحاول بشر فى هذا الزمان أو الذى قبله أن يكتب شيئًا مثيلاً له ، شيئًا يكتب له هذا الخلود الأبدى الذى للقرآن ، ويكتب له هذا الدوام فى المعانى والمفاهيم والأحكام والمنهج والملاءمة لأى عصر ..

إنك ترى القمر بعينيك وتقول هذا قمر ، وترى الشمس وتقول هذه شمس ، والذى لا تستطيع أن تراه بعينيك وإنما بمشاعرك وأحاسيسك وأيضًا بعقلك ، إذا فكرت بمشاعرك وعواطفك فسوف تكتشفه ، وإذا فكرت بعقلك فسوف تراه ، ومن هنا يبدأ الإيمان ، ومتى آمنت به يجب أن تطيعه ، وسر طاعة الله فى الآخرة .

إنك فى حياتك تبحث عن بوليصة تأمين تؤمن لك مستقبلك ، كل إنسان فينا قلق على مستقبله ، ولكن هذا المستقبل محدود السنوات ، كم سنة هذا المستقبل ؟ عشر سنوات ؟ عشرون ؟ خمسون ؟ فما بالك إذا كان المستقبل ملايين السنوات ؟ ما بالك إذا كنت تريد بوليصة تأمين تضمن لك تأمين مستقبلك بملايين السنين ؟ هذه البوليصة موجودة فى منهج الله .

وكل شىء يريده الله منك لا تشم فيه ولا تلمس فيه ولا تحس فيه إلا كل خير ، الصلاة مثلاً ، هات ماكينة تقوم بصيانتها خمس مرات كل يوم ، ألا تضمن أنها تعيش طوال عمرها الافتراضى فى أحسن حال ؟ والصوم .. أليس تطهيرًا للنفس وتنقية للروح ؟ والزكاة ، أليست الوسيلة للعدالة الاجتماعية ونشر المحبة بين الناس ؟ والحج ، أليس استعراضًا بطريق غير مباشر لقوة المسلمين العددية وتظاهرهم واجتماعهم معًا فى يوم معين من السنة فى ساعات معينة ؟ ألا يعنى كل ذلك أن الإسلام يعنى الخير والقوة والحب والتعاطف والتقارب ؟ ولكن البعض يخطئ خطأ كبيرًا عندما يتصور أن الإسلام مجرد كلمة تكتب أمام خانة ديانته ، الإسلام يقتضى منك أن تفهمه وأن تدرك به الله ومنهجه ،

وعندما تصل إلى هذه الدرجة سوف تكتشف أنك قادر على أن تواجه الدنيا بإحساس بالغ من القوة والضعف ، القوة أمام البشر والضعف أمام الله ، وسوف تشعر أنك مهما واجهت من مصاعب ومشاق فإنك تملك إيمانك الذى سيصبح أشبه بسفينة نوح التى تعصمك من الغرق ..

وإذا كنا عرفنا الله من القرآن ، وعرفنا منهجه من القرآن ، وهذا القرآن نزلت آياته فى شهر رمضان ، أفلا نكون محظوظين إذن ، أننا نعيش أيام هذا الشهر ؟

مع ذلك لابد أن ألفت نظرك إلى شيء بالغ الأهمية ، وهو أن عبادة الله إذا كانت باتباع منهجه فإن من أوليات وأساسيات هذا المنهج أن تعمل ، وأن تتفوق ، وأن تكسب ، وأن تصارع الدنيا ، وإذا كان كثيرون قد احتاروا فى هذه المعادلة بين العمل للحياة والعمل لما بعد الموت ، فإن حل المعادلة يكمن فى «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» ولكن أحدًا لن يعيش أبدًا ، ولهذا يجب أن تدخر لمستقبلك الكثير ، إن الطفل الصغير يتعلم أن يضع قرشًا فى حصالته لكى يجد مجموعة جنيهات عندما يكبر ، ولكن حصالة الدنيا مهما جمعت فيها ، ومهما وضعت فى بنوك وفى صناديق توفير وفى أراض وعمارات وأطيان ، فإنك أبدًا لن تأخذ منها شيئًا معك ، إن الحصالة الوحيدة التى يمكنك أن تصحب كل مدخراتها معك هى التى تضع فيها كل يوم ذرة خير ، إنها بوليصة تأمين حقيقية لكنها ليست محددة بمدة ، إنها بوليصة تأمينك للأبد ، لك كل حبى وأمنياتى فى هذا الشهر الكريم ، وإلى لقاء قريب بإذن الله.